مفهوم الدولة والحكم في التاريخ القديم
بلاد الرافدين ومصر القديمة أنموذجاً

أ.م.د. عماد طارق توفيق
قسم التاريخ – كلية التربية للبنات
جامعة بغداد
E-mail: hu_alani@yahoo.co.uk
Mobile: 07809819512

الملخص :

يبحث الموضوع المشار إليه آنفا دراسة بناء الدولة في بلاد الرافدين ومصر الفرعونية بدءاً من مرحلة الدويلة (المدينة) وصولاً إلى الإمبراطورية ومن خلال تطور نظام الحكم لاسيما في مصر الفرعونية . إن الأساس العام للحكم هو الطابع الديني لكلتا الحضارتين فضلاً عن نشوء دويلة المدينة بوصفها مرحلة أولية في سلم بناء الدولة الكاملة ثم الإمبراطورية كونها مرحلة نهائية لتوسع الدولة، ومن دون شك فقد دلت الألقاب السياسية على مدى أهمية ذلك التوسع فضلاً عن الإدارة بوصفه المكمل لبناء الدولة. يمكننا القول إن الدولة الكونية بقيادة الآلهة كانت الأنموذج الذي آمن به سكان بلاد الرافدين وحتى الفراعنة في بناء الدولة الأرضية، ومن البديهي أن تكون لكل حضارة ميزاتها وبصماتها في رسم الإطار العام للدولة والمواطنة. وينقسم البحث على قسمين ، في الأول تحدثنا عن شكل الدولة في بلاد الرافدين بوصفه نشأة دينية كونية من الآلهة ثم تفويضها للبشر والتحول إلى الملكية، فيما شمل القسم الآخر دراسة الدولة في مصر الفرعونية وتطورها ومن خلالها نتعرف على مفهوم المواطنة الذي هو من دون شك مغاير للمفهوم المعاصر. لقد تطور المفهوم السياسي المصري ولاسيما بعد إشراك المرأة بالحكم وإدارة الدولة منذ عصر الأسرة الثانية وإشراك الأبناء لاسيما ولي العهد في الإدارة منذ عصر الأسرة الثانية عشر فضلا عن تولي الكهنة زمام الأمور منذ عصر الأسرة الخامسة، وتأثيرهم في السياسة الداخلية للدولة، وكذلك الجيش الذي تولى الحكم في عصر الأسرة الثامنة عشر والتاسعة عشر فضلاً عن تأثير الوزير أو عزيز مصر وحكومته بوصفهم يمثلون الدولة وأركانها. في ختام البحث توصل البحث إلى حقيقة تاريخية ثابتة أن أساس الدولة ديني ومبدأها كذلك والاختلاف في الجزئيات والتطور بحسب الظروف السياسية لكلا الحضارتين، فضلاً عن بقاء الشكل السياسي لبلاد الرافدين من دون تغيير عكس مصر الفرعونية.

الكلمات الافتتاحية : الدولة – الحكم – تاريخ قديم – بلاد الرافدين ومصر القديمة .

المقدمة:

إن قيام الدولة وتأسيسها قد مرَّ بمراحل عديدة ضمن العصور التاريخية والذي أساسه اجتماعي ثم ديني سواء أكان في بلاد الرافدين أم مصر القديمة كونهما من أولى الحضارات القديمة التي نشأت في العالم القديم، فضلاً عن قِدَم التقدم الحضاري لكليهما. لقد شكَّل نظام الحكم وتطوره عِبر العصور القديمة أساس قيام الدولة مرتبطاً بالدين ومستمداً قوته منه. وقد سجَّل نظام الحكم وتطور إدارة الدولة في مصر القديمة مستويات متقدمة ارتبطت بالفلسفة الدينية من خلال النظر إلى الملك كونه إلهاً، وبمرور الوقت تبدلت النظرة المصرية نحو شخص الملك، وهكذا لمسنا تطوراً في الفكر المصري تجاه نظام الحكم وبناء الدولة عِبر عصورها التاريخية المتلاحقة.

الدولة ومفهومها في عصور بلاد الرافدين:

من الواضح لدينا أن بناء الدولة والهوية الوطنية لم يبدأ من فراغ من دون وجود جذور تاريخية متسلسلة، والواقع التاريخي يشير إلى وجود إشارات لبدء تأسيس الدولة خلال العصور التي سبقت التدوين التاريخي، أي خلال عصور قبل التاريخ. نرجح أن أولى أشكال قيام الدولة وتأسيسها بمفهومها المتعارف عليه قد بدأ في العصور الحجرية، إذ يمكننا عدّ الأسرة نواة الدولة المصغرة، فالأب بمنزلة الملك، والزوجة تمثل الحكومة بمفهومها اللاحق، وهكذا مع نشوء المستقرات في العصر الحجري الحديث ونمو الأسر وبروز القبائل مع تكاثر أعداد المستوطنين نتيجة الاستقرار المناخي والاستيطان على ضفاف الأنهار بدأت بوادر قيام الدولة. هنا في العصر الحجري الحديث ربما أشرف أفراد ذوو مكانة في مجتمعات العصر والمجتمعات القروية الأولى على الطقوس الدينية، إلا أنهم لم يتمتعوا بسلطة مطلقة على الشؤون الدينية كونها الأساس اللاحق لنشوء الدولة المدنية في العصور التاريخية **(عبد الهادي، ٢٠١٠ ، ص ٣٩)**.

لقد نشأت نظم اجتماعية كبرى نتيجة التعايش بين الأسر المختلفة وقيام العلاقات الواسعة بينها لصالح وحدة اجتماعية كبيرة، وبهذا يمكننا القول إن الفكر السياسي في بلاد الرافدين وُلِد من رحم الدين واستمر مرتبطاً به طوال مراحله التاريخية **(عبد الهادي، ٢٠١٠ ، ص ٣٤)**.

وخلال العصر المعدني وجدت أبنية دائرية سميت ثولوس في مدينة حلف والأربجية وغيرها، وتميزت بكونها مقببة وذات هياكل تشبه خلية النحل مشيدة من اللِّبِن تستقر على أسس دائرية حجرية ملحقة بها غرف استقبال مستطيلة يرجح أنها مجالس مدينة مخصصة لاجتماع سكان القرية من المتنفذين عند حاجتهم لاتخاذ قرار مهم مثلاً **(رو ، ١٩٨٤ ، ص ٩٣)**.

إن ارتباط نشوء الدولة بالمفهوم الديني نلاحظه منذ عصر العبيد، إذ أخذت ملامح المؤسسة الدينية تتبلور في جنوب البلاد، فاتساع المعابد شكّل المراكز التي دارت حولها النشاطات الدينية والدنيوية، وبحكم مكانة المؤسسة الدينية استطاعت الهيمنة على شؤون

المجتمع بوصفها تمثل السلطة السياسية، فالمعبد بيت الإله مصدر النظام والسلطة والعدالة **(عبد الهادي، ٢٠١٠ ، ص ٣٩)**.

نلاحظ كذلك أنه في تل الصوان وجود الأسوار حول المدينة يشير إلى وجود نظام حكم ربما يكون بدائياً ويدل على صراعات. لقد كانت أولى مراحل السلطة هي السلطة الاجتماعية المرجح وجودها في المراحل التاريخية السابقة للكتابة، وهو ما يطلق عليه مصطلح الدولة الكونية التي تبلورت في زمن مبكر، حيث كانت الديمقراطية البدائية هي نمط الدولة الشائع **(الطحان، ١٩٨١ ، ص ٢١٦)**. عليه، فالواضح لدينا أن السلطة الاجتماعية التي وُجدت في عصور قبل التاريخ كانت تمثلها أو تجسدها في الأرض والواقع القبيلة، وهي التي تمثل قاعدتها الاجتماعية، وفي الوقت نفسه تمثل الوحدة الأساسية، فالشيوخ الذين كانوا مكلفين بإدارة شؤون القبيلة العامة كانوا رؤساء، وكان يطلق عليهم (أبّا) أي الأب، وهو همزة الوصل مع ما نسميه الديمقراطية البدائية والتنظيم الأول للمجتمع الذي اتخذ شكلاً عائلياً أو عشائرياً قائماً على أساس القرابة **(الطعان، ١٩٨١ ، ص٢١٩)**.

لذلك نقول إن مفهوم الديمقراطية البدائية أو البسيطة تبدو قرينة الوحدة العائلية أو العشائرية القبلية القائمة أساساً على القرابة. لقد احتضنت الدولة الكونية السماوية الإله أنو وأنليل، فالسلطة التي يمارسها إله السماء أنو اتخاذ القرارات، بمعنى أنه المشرع وهي سلطة أساسية أصلية، بينما السلطة التي يمارسها إله الرياح والعواصف أنليل سلطة التنفيذ المتعلقة بالقرارات الإلهية أو المجتمع الإلهي، وهي سلطة تابعة **(الطعان، ١٩٨١ ، ص٢١٩)**. وبهذا فالسلطة الكونية السماوية تتألف من قسمين هما: التشريعي والتنفيذي، وكانت تجري معالجة القرارات بإبداء الآراء والتصويت بالغالبية. إن قيام السلطة الاجتماعية مثلما أشرنا وذكرنا سابقاً بدأت منذ العصر الحجري الحديث، فهي في نظرنا ليست وليدة العصر الشبيه بالتاريخي، ودليلنا أسوار المدن المخصصة للحماية، وبذات الوقت الإشارة إليها كونها تمثل السد المنيع ضد الغزوات والحروب ولنا في ذلك قرية الصوان التي تقع جنوب سامراء بحدود ١١ كم، وتعود زمنياً للنصف الثاني من العصر الحجري الحديث ويحيط بها سور دفاعي بواباته ذات مداخل منحنية، وكان هناك خندق دفاعي، فضلاً عن الأسوار الداخلية التي كانت تحيط بالأبنية المهمة التي تمثل المعابد والقصور والمخازن مما يوحي لدينا بوجود سلطة حاكمة في القرية **(الماجدي، ٢٠١٩ ، ص٨٧)**. فضلاً عن ظهور التقسيم نفسه في تل الأربجية التي تعود للعصر المعدني وتقع على مشارف نينوى القديمة، إذ ظهرت فيها المباني المدورة، وأحيطت بأسوار، وظهرت كذلك الشوارع المبلطة بالحجارة **(الماجدي، ٢٠١٩ ، ص١٠٠)**.

ومن المفيد ذكره أن العلاقة بين الدولة الكونية والدولة الاجتماعية جاءت من كون الآلهة تشبه البشر في كل شيء عدا الخلود.

فأسطورة الخليقة البابلية التي تتحدث عن خلق الآلهة والكون والبشر تظهر وجود مجلس للآلهة وتبين مبدأ التشاور بين الآلهة، فضلاً عن الإشارة إلى الصراع من أجل السلطة، وتؤكد وجود مجلس الشورى وتبادل التقبيل والولائم، فهي انعكاس لما كان سائداً في المجتمع وقتذاك **(باقر، ٢٠١٠ ، ص٩٦)**. إن هذه الأسطورة تدل على وجود نوع من أسلوب الحكم، وهو المؤدي الى قيام الدولة يمكن تسميته الديمقراطية البدائية، فالحكم مستنداً على التشاور والقرار المتخذ بعد التداول يكون بطريق الاقتراع، وفيه يجري انتخاب الآلهة، وعليه فالمعتقد أنه الأساس في أصل الحكم ونظام الملوكية **(باقر، ٢٠١٠ ، ص١٠٣)**.

كانت من مهام مجلس الآلهة فضلاً عن قرارات اختيار الآلهة لتولي الحكم، إصدار الأوامر القضائية أو بمنزلة المحكمة التي تحاكم وتصدر الحكم، كما نلاحظها في الأسطورة السومرية بشان ولادة الإله القمر ننا وهي أسطورة أنليل وننليل، وملخصها اغتصاب أنليل ننليل، فبعد القبض عليه وإحضاره أمام مجمع الآلهة الخمسين الذي كان يترأسه الآلهة السبعة الكبار تقرر نفي أنليل إلى العالم الأسفل **(باقر، ٢٠١٠ ، ص١١٨)**.

لقد كان الاعتقاد السائد أن السلطة العليا في أقدم مجتمع سومري بيد مجلس عام يضم جميع مواطني المدينة يجتمع لاتخاذ قرارات طارئة بعد إبداء الآراء والمناقشة وبعد إجماع الآراء يصار إلى اتخاذ القرار النهائي والتي منها اختيار الأين السيد وهو موظف ديني كان له دور رئيس في الزواج المقدس، وفي بعض المدن كان عمله إدارياً له ارتباط بأراضي المعبد ونتيجة انقسام أعمال الأين بين دينية ودنيوية أصبح يحمل لقب إنسي. وفي الحالات التي تتعرض فيه المدينة للهجوم يختار المجلس قائداً حربياً هو اللوكال، وبذلك عدّ نظاماً سياسياً قائماً يمثل دويلة المدينة. وكان ملوك الدويلات السومرية يستمدون سلطتهم وتفويضهم من إله مدينة نفر (عفك) أنليل، وهذا التقليد كان متبعاً منذ عصر جمدة نصر وليس بعد عصر فجر السلالات الثاني عندما انتشرت الأسوار لحماية المدينة **(ساكز، ١٩٧٩ ، ص٥٧–٥٨)**.

إن ما نطلق عليه الأسلوب الديمقراطي البدائي أو البسيط قد وجد في العصر الشبيه بالكتابي أو دور الوركاء، ويعتقد أنه نشأ مع تطور التفكير الجماعي في أثناء التحكم بمياه الأنهار مما أدى إلى ضرورة وجود نوع من التنظيم الاجتماعي للمجتمع، وكان لعامل البيئة أثره الكبير في تطور نظام الحكم. فقد كان لكل مدينة مجلس من الرجال الأحرار البالغين ومجلس آخر للأعيان فضلاً عن مجلس المدينة **(الصالحي، ٢٠١٧ ، ص٩٥)**.

لقد أصبحت بعض القرى أغنى من غيرها وأكبر؛وفيما يخص المعابد التي أصبحت مراكز لتنظيم كامل النشاطات الاقتصادية تجمع ذلك القسم من السكان الذي أصبح يعيش للمعابد ومن المعابد وهم الكهنة الذين تركزت في أيديهم السلطة والثروة منذ وقت مبكر **(رو، ١٩٨٤ ، ص١٠٦)**.

إن مسألة اختيار الحاكم بطريقة الانتخاب كانت إحدى مميزات العصر الشبيه بالتاريخي (٣٥٠٠-٢٨٠٠ ق.م). أما المبدأ الذي سار عليه ملوك بلاد الرافدين مع بداية العصور التاريخية فهو مبدأ الاختيار الإلهي **(عبد الهادي، ٢٠١٠ ، ص٤٣)**. وبطبيعة الحال، فالعراقيون القدماء آمنوا بالتفويض الإلهي، فمن أسطورة إناناوإنكي السومرية ترد عبارة "أعطاني أبي إنكي النواميس المقدسة، أعطاني فن السلطان، أعطاني الكهانة" **(الماجدي، بخور... ٢٠١٩ ، ص١٨)**. وعبّروا عن العلاقة بين الملك الحقيقي (الإله) والملك البشري الذي يمثل السلطة السياسية على الأرض بعبارة.. إن الملك هو مرآة للإله.. وشارات التي ترمز إلى السلطة الملكية كالصولجان والتاج ورباط الرأس وعصا الراعي هي واقعاً شارات أنو، وكانت بيده في السماء قبل أن يعين أي ملك من البشر، وهو الذي يدعو من اختاره لممارسة الملوكية **(عبد الهادي، ٢٠١٠ ، ص٥١-٥٢)**. وهذه الحقيقة لدى العراقيين القدماء نجدها في النصوص السومرية "في سحيق الزمان أنزل التاج وعرش الملكية من السماء". وقد عمل الملوك لصالح الآلهة وهم يتمتعون بالقدسية منذ أقدم العصور **(الصالحي، ٢٠١٧ ، ص٩٩)**.

وبذلك يمكننا القول إن أسس التنظيم السياسي بدأت ملامحه منذ النصف الثاني من العصر الحجري الحديث بدلالة أسوار المدن التي تشير إلى وجود غزوات أو حروب فضلاً عن سعة المعابد مما يعكس النظرية القائلة أن للمعبد دوراً رئيساً في نشوء النظام السياسي كون الكهنة ربما كانوا من شيوخ القبائل التي كانت تسكن المدينة أو المستوطن، وهم في الوقت نفسه السلطة السياسية والتشريعية والاقتصادية، وبغياب المصادر المدونة نرجح أن التنظيم الاجتماعي للقرية ووجود المجالس ساعد في قيام دويلة المدينة التي توضحت معالمها السياسية في العصر المعروف بعصر فجر السلالات، لكننا في الوقت نفسه نرى أن قيام الملكية وتأسيس الدولة جرى في العصر الشبيه بالكتابي (٣٥٠٠-٢٨٠٠ ق.م) بدلالة سعة المعابد وموقعها ووجود المدونات المعروفة بالكتابة الصورية، فهي وإن كانت قوائم لسلع وعمال المعابد، فهي تشير كذلك إلى القوة الاقتصادية والسياسية للمعبد كونه المركز الإداري والاقتصادي في المدينة. وخلال عصر دويلات المدن السومرية استمد الملوك سلطتهم بالدرجة الأولى من اعتراف الإله إنليل إله مدينة نفر. كان لكل دويلة سومرية حاكمها الخاص الإنسي المستخدم للدلالة على القائد المشرف على تنظيم السكان للأعمال الزراعية ذات المجهود الجسماني، أما اللوكال فكان يطلق على الحاكم الذي تجاوزت سلطته على مدينته إلى نوع من السلطة والنفوذ على دويلات أخرى **(ساكز، ١٩٧٩ ، ص٦٣)**. وكان الاعتقاد سابقاً أن حكومات ودويلات المدن السومرية المدارة من الإنسي هي حكومات دينية **(ساكز، ١٩٧٩ ، ص٦٥)**. لقد أشارت جداول الملوك السومرية أن الملوكية نزلت لأول مرة من السماء إلى الأرض وحلت في أريدو (تلول أبو شهرين) في الناصرية مقر الملوكية قبل الطوفان، وأول ملوكها الولم والذي يعني اسمه قوي-رجل-ألف أي الرجل الذي

يعادل ألف رجل. وأشارت إلى وجود سلالات حاكمة لخمس مدن، وبهذا فإن بروز النظام السياسي ربما ظهر في الجنوب في العصر المعروف بعصر العبيد أي العصر المعدني **(الماجدي، الحضارات... ٢٠١٩ ، ص١١٤)**.

إن السبب الذي يدعونا إلى الاعتقاد بوجود تنظيم سياسي لدويلات مدن في عصر العبيد يعود للتطور الواسع في الحضارة فضلاً عن اتساع المعابد التي عدت مركز المدينة وطول المدة الزمنية للعصر العبيدي كلها مؤشرات لوجود دويلات وتنظيمات سياسية واقتصادية ودينية. وبناءً على ما تقدم، فإن شكل الدولة لبلاد الرافدين في العصر العبيدي ربما كان دينياً للأسباب المشار إليها آنفاً. وعصر العبيد سبق الطوفان كما نعتقد ونرجح، وبعد حصول الطوفان الذي يعد الحد الفاصل لانتهاء عصر دولة وبداية عصر دولة تمثل بعودة الملكية بعد مغادرتها إلى السماء، أي أن الدولة الكونية على الأرض عادت إلى السماء ثم عادت من السماء إلى الأرض بالتفويض الإلهي نفسه، لكن هذه المرة ليس في أريدو حيث القسم الجنوبي بل إلى كيش في وسط العراق. إن انتقال الملوكية من الجنوب إلى الوسط ثم الشمال لاحقاً غالباً ما يفسره الكهنة بتفويض الآلهة وغضبها على الملوك، ولذلك تهجر ممالكها وتتخلى عن سكانها وتسلم السلطة إلى أعداء الملوك الذين يخالفون أمر الآلهة. نشأت مدينة كيش قبل حوالي ٣١٠٠ ق.م وأول ملوكها جشور، ويعتقد أنه أول من أنشأ مملكة في التاريخ خلفه ملوك عدة ، منهم زوقاقيب (العقرب) وكانت لهذه المملكة علاقات مع مملكة عيلام، وهذه الفترة هي عصر فجر السلالات الأول **(الماجدي، الحضارات... ٢٠١٩ ، ص١٣٨)**.

إن اتساع حدود المدن وازدياد عدد السكان قاد إلى ازدهار الزراعة التي اعتمدت وسائل الري من الأنهار وأدى إلى نمو النشاط الحرفي والتجاري داخلياً وخارجياً. ولذلك يعد عصر فجر السلالات السومرية من العصور الطويلة التي تمثل دولة–المدينة والتي تتمثل بمدينة مركزية هي العاصمة تتبعها عدد من المدن والقرى والأرياف والأراضي الزراعية وتحكمها سلالة حاكمة مستقلة عن بعضها، وقد ارتبطت دولة–المدينة مع الأخرى بمعاهدة واتفاقية ثنائية، إلا أن العلاقات بين دول المدن في الغالب كانت عدائية **(الصالحي، ٢٠١٧ ، ص١٠٤)**.

ساد الصراع بين بعض دويلات المدن وكذلك مع بعض نظيراتها في إيران مثالها الحروب بين الوركاء ومدينة إرتا الواقعة غرب إيران بين مدينتي الشوش وديزفول عام ٢٦٠٠ ق.م، والحال نفسه فيما يتعلق بمدينة أوان التي أسقطت سلالة أور الأولى وبدورها اندحرت أمام كيش التي سقطت على يد مملكة خمازي الواقعة غرب جبال زاكروس على يد الملك هدانش. وهكذا تساقطت دويلات المدن لتبدأ المحاولات الأولى لتوحيد البلاد **(الصالحي، ٢٠١٧ ، ص١١٠)**.

إن الحاكم في دويلة المدينة لعصر فجر السلالات ٢٨٠٠–٢٣٧١ ق.م يقف على قمة هرم السلطة وهو يحمل لقب الأين أو الإنسي أو اللوكال، وربما كان طاغياً أو مستبداً على الرغم

من كونه كان يعرض بعض المسائل المهمة على مجلس الشيوخ والأحرار ويستشيرهم ليتبين معرفة آرائهم التي تكون غير ملزمة له. في أواخر عصر السلالات المعروف باسم دويلات المدن، ولما كانت حالة الصراع هي السائدة، بدأت الخطوة الأولى للدولة المركزية التي ضمت أرض بلاد الرافدين، وكان صاحبها الملك لوكالزاكيزي ٢٤٠٠-٢٣٧١ ق.م وهو ملك مملكة أوما (تل جوخه) الذي استطاع دحر مملكة لكش (تل الهبة) ثم الوركاء وصولاً إلى وسط بلاد الرافدين، إذ يبدو أنه لم يستطع ضم مملكة كيش (تلول الأحيمر) قرب بابل، وبذلك انتقل نظام الحكم من حاكم دويلة مدينة إلى مملكة تتبع عاصمة موحدة، وهنا الوركاء التي كانت عاصمة هذا الملك الذي دام حكمة حوالي ٢٥ سنة (**عبد الهادي، ٢٠١٠ ، ص٤٦**).

لقد تبع الملك السومري لوكالزاكيزي سياسة الفتح العسكري التي نتجت منها السيطرة على جميع بلاد سومر وتحت سلطة عاصمة موحدة هي الوركاء. إذاً فقد تطورت الدولة في عهد الملك السومري لوكالزاكيزي، وأصبحت هذه السياسة سياسة متبعة لاحقاً نلاحظها عند سرجون الأكدي وحمورابي والآشوريين. وأضحت الألقاب بعدما كانت مقتصرة على المدينة تدل على السعة والقوة كأن يحمل لقب ملك بلاد سومر وملك بلاد أكد وملك الجهات الأربع وغيرها. فضلاً عن ورود مصطلح المواطنة، فنلاحظ أنه في مقدمة المشاريع الإصلاحية أو القوانين يرد مصطلح مواطني نفر أو أريدو وغيرها، فمصطلح المواطنة والتوسع السياسي العسكري دلالة على تطور مفهوم الدولة منذ أواخر العصر السومري وصولاً إلى العصر الآشوري (**ساكز، ١٩٧٩ ، ص٦٧**). أما في العصر الأكدي فالتطور اللافت لمفهوم الدولة والمواطنة هي السياسة التي اتبعها مؤسس الأسرة سرجون الأكدي الذي اتبع بدوره سياسة الفتح العسكري كما كان في عهد سلفه لوكالزاكيزي مضيفاً عليها تحطيم أسوار المدينة وتجريد المتمردين المحتملين من الحصون، فضلاً عن إشغال مواطني أكد المناصب الإدارية العليا في الدولة. وقد نمت الدولة في بلاد الرافدين إلى إمبراطورية، وتحول النظام السياسي إلى النظام الإمبراطوري والنصوص تشير إلى الإدارة المركزية القوية للإمبراطورية الأكدية وهو تحوّل سياسي بارز (**ساكز، ١٩٧٩ ، ص ٦٩-٧٠**). لقد أشرنا آنفاً إلى أن الملك السومري لوكالزاكيزي اتخذ ألقاباً سياسية مثل لقب ملك القطر، وملك سومر، أما سرجون الأكدي مؤسس الإمبراطورية الأكدية ٢٣٧١-٢١١٣ ق.م، فاتخذ لقب ملك سومر وملك الجهات الأربع فضلاً عن تأليه الملوك لأنفسهم، كما أدخل الملوك أسماءهم مع أسماء الآلهة في العقود القانونية. ولأهمية الملك الأكدي، أصبح القضاة يحكمون باسمه، كما أن الدولة أصبح لها تقويم مركزي موحد بعد أن كان لكل دويلة مدينة تقويمها الخاص. إن ظهور الإمبراطورية الذي هو شكل من أشكال التوسع في الدولة العراقية القديمة كان فاتحة لظهور إمبراطوريات كبيرة سارت عبر التاريخ ومن أهمها الإمبراطورية الآشورية. لقد كانت ألقاب الملوك الأكديين تدل على الشمول وتشير إلى امتداد واتساع الإمبراطورية، ووضعوا علامة

الألوهية قبل أسمائهم هي من باب التقديس وليس إشارة إلى تأليههم لعدم وجود معابد لهم يعبدون فيها، وكان الملك يعدّ نائب الإله **(الماجدي، الحضارات... ٢٠١٩ ، ص١٩١-١٩٢)**.

وخلال ظهور القبائل الآمورية وبروز ما يسمى بالعصر البابلي القديم ترأس الشيوخ قيادة القبيلة، إذ كان الآموريون في بلاد الشام قبل تدفقهم نحو بلاد الرافدين يتمتعون بنوع حضاري مستقر قياساً إلى أموريّ بلاد الرافدين، وقد تحول الشيوخ الأموريون تدريجياً إلى ملوك، واستطاعت أن تكون مدينة بابل أنموذجاً للدولة البابلية الواحدة حين أصبحت دويلات المدن الأمورية في عصر الملك حمورابي ١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م في دولة واحدة رأسها حمورابي، وقد تحول النظام السياسي في عصر الملك المذكور إلى نظام ملكي نشأت على يده الإمبراطورية البابلية الأولى حين بدأ توسعه في حروبه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ونتيجة استيلائه على مدن وممالك عديدة في بلاد الرافدين، وكان للأموريين الفضل في إدخال نظام سياسي جديد. لقد تطورت وظيفة الشيخ الأموري بعد استيلائه على المدن، إذ أصبح حاكماً ثم ملكاً وظهرت وظائف جديدة وألقاب جديدة مثل مقدم الأموريين، أمير الأموريين، كاتب الأموريين، والي الأموريين ، وكان الملوك أحياناً يمارسون التجارة **(الماجدي، الحضارات... ٢٠١٩ ، ص٣٧٨-٣٨٠)**. وصلت الدولة العراقية في تاريخها القديم أوج ازدهارها في العصر الآشوري، إذ ابتكر الآشوريون لقب ملك الكون على وفق أن الملك يمثل الإله في حكم الأرض أكثر من دلالته على الألوهية، وقد وضعوا أسس ولاية العهد وتقسيم السلطة، وكان مبدأهم العدالة، ففي نص آشوري حديث يتحدث عن الحاكم العادل يخص الملك مردوخ-بلادان البابلي المعاصر للملك الآشوري سرجون ٧٢١-٧٠٥ ق.م يفيد أنه إن لم يعبأ الملك بإقامة العدل فستعم الفوضى بين الشعب وتخرب البلاد. وإذا لم يعمل الملك على نشر العدل في مملكته فإن الإله أيا سيد المصائر والأقدار سيبدل مصيره ويطارده، وإذا لم يأخذ بنصح مستشاريه فستثور البلاد عليه **(باقر، ٢٠١٠ ، ص٢٠٠)**.

من كل ما تقدم نلاحظ أن تبنّي النظام العسكري في الإدارة والاقتصاد المبني على الفتوحات استراتيجية تبنتها الدولة الأكدية تمثل التبني نفسه في الإدارة الآشورية، وبذلك يمكننا القول إن الدولة في العصر المذكور هي دولة عسكرية مبنية على المركزية في الإدارة، والجيش أداتها في التوسع والمعتمد في رفد اقتصادها بالفتوحات والغنائم. وهذا السير التاريخي للدولة المعتمد على الفتوحات الداخلية والعسكرية مثل خط البداية وحتى السقوط مع تأمين خطوط التجارة والسيطرة على مصادر المواد الأولية التي تحتاجها ماكنة الحرب سواء أكانت الأكدية أم الآشورية. إن روح القومية والمواطنة نشأت لأول مرة في عهد السومريين بعد نجاح حرب التحرير التي شنها الملك السومري أوتو-حيكال على الگوتيين، فكان من مظاهرها تدوين تراث نظام الحكم وسلالاتها الحاكمة **(الصالحي، ٢٠١٧ ، ص٢٦٩)**.

وخلال عصر سلالة أور الثالثة (٢١١٣-٢٠٠٦ ق.م) أشارت قبيلة أورنمو بحقها الشرعي في الحكم تاريخياً أو إصرارهم على التفوق واحتكار السلطة واستبعاد الأسر الأخرى الأقل شأناً في القبيلة من الوصول إلى سدة الحكم، وقد جرى تعريف الأسر الصغيرة بوصفهم فروعاً من العائلة الحاكمة وتوطيد العلاقة بهم عن طريق الزواج أو من خلال أحد الأعمام الذي ينتسب إلى خط الحاكم. وقد أنيطت جميع الوظائف الهامة في إدارة الدولة أو الإمبراطورية بعائلة واحدة، وبذلك أضحت جميع العشائر تحت حكمهم **(الصالحي، ٢٠١٧ ، ص٢٧٨)**.

إن التنظيم الإداري للدولة السومرية في عصرها الثالث الممثل بسلالة أور الثالثة قد أوجد منصب سوكال-ماخ والذي يأتي بعد الملك، أي أنه الرجل الثاني بعد الملك، وقد ارتبطت مسؤولياته مع الولايات الشرقية للإمبراطورية ووظيفته قريبة جداً من وظيفة المحافظ (الإنسي) **(الصالحي، ٢٠١٧ ، ص٢٩٨)**. ومع تقدم العصور التاريخية تقدمت أسس الإدارة مع بقاء نظام الحكم الملكي المستند على العشيرة سائداً كذلك حتى في العصر الآشوري. وفي عصر الدولة الكلدية في منتصف القرن السادس ق.م تحديداً كانت بلاد الرافدين بحاجة إلى وحدة دينية ربما لوجود الخطر الإخميني على الحدود الشرقية وحاجتها لوحدة سياسية مركزية. وربما كان لتغيير العقيدة الدينية وتأثر البابليين بالعقيدة اليهودية فضلاً عن تشكيل كفة معبد مردوخ خطر على العرش البابلي الكلدي **(الصالحي، ٢٠١٧ ، ج٣ ، ص٩٨)**.

إن صورة تطور الدولة في تاريخ العراق القديم يمكننا إجماله بالصورة الآشورية، فاستناداً إلى قوائم الملوك الآشوريين، حكم الملوك الأوائل وعددهم ١٧ ملكاً من طوديا إلى إيباشل عاشوا في الخيام، وهذا يدل على كونهم شيوخ قبليين قادوا قبائلهم قبل تشييد العاصمة وتكوين الدولة، ولم يستعملوا الألقاب، بينما ظهر لقب "أمير آشور" بدءاً من الملك ٢٧ صوليلي إلى الملك ٣٥ سرجون الأول، أما لقب الملك فيرد في التسلسل ٣٩ وهو شمشي أدد الأول كونه أول ملك آشوري حمل لقب ملك **(حنون، ٢٠٠٧ ، ص١٢١)**.

وهكذا بدأت الملوكية وتوسعت في بلاد آشور وشملت أسر حاكمة توالت على عرش آشور وصولاً إلى الأسرة السرجونية، إذ وصلت الدولة الآشورية إلى أوج ازدهارها وتوسعها، فقد أصبحت الدولة الآشورية إمبراطورية كان امتدادها من جبال زاكروس وصولاً إلى الحدود الليبية المصرية، أي أنها ضمت أقاليم عديدة منها بلاد الشام ومصر والأناضول وشمال الجزيرة العربية، فيما كانت الدولة ضمن العصر الكاشي تتبع السياسة القديمة في منح الإقطاعيات العقارية للمقربين من العسكريين والمدنيين، وقد كانت أشبه ما تكون بالأملاك الخاصة لأصحابها، وقد اتسعت الصبغة الإقطاعية في الدولة، وكانت ممثلة للعصور البابلية الوسطى، واتبع ملوك العصر سياسة كسب ود كبار رجال الدين، وتأكيد القربى من الأرباب عن طريق منح الهبات والإقطاعيات للمعابد وإعفائها من الضرائب **(صالح، ٢٠٠٤ ، ص٧٣٢-٧٣٣)**.

الدولة ومفهومها في التاريخ المصري القديم:

تعد الحضارة المصرية القديمة من أبرز الحضارات في الشرق القديم وأقدمها في بناء مؤسسات الدولة، ولعلنا لا نبالغ إذا عدّننا أن بذور نشأة الدولة والقومية بدأت في عصور ما قبل التاريخ لاسيما في العصر الحجري الحديث، ومن خلال الاستدلال بالآثار المكتشفة وتخطيط القرى ونحوها إلى مدن يدل من دون شك على وجود سلطة اجتماعية أو سياسية نوعاً ما في القرية أو المستوطن البشري، فيما شهد العصر المعدني ظهور السلالات الحاكمة سواء أكانت في دويلات مدن أم في قيام أقاليم وممالك لاسيما المملكة الشمالية في الدلتا أو المملكة الجنوبية في الصعيد وصولاً إلى توحيد مصر ودخولها العصور التاريخية بتقسيماتها الزمنية وسلالاتها الحاكمة، وتطور نظام الحكم المركزي، وبروز الملك أو الفرعون على رأس الهرم السياسي للدولة المصرية القديمة. بدأت أنظمة الحكم وبروز الدولة منذ العصر الحجري الحديث حيث برزت بعض الزعامات في القرى الزراعية ومن أبرزها قرية حلوان الواقعة على بُعد ٣ كم من محافظة حلوان، إذ عُثر في بعض القبور المؤرخة للحضارة العمرية على صولجان بيد الميت مما يشير إلى وجود زعامة بين قومه وأنه ذو مكانة متميزة (**الأحمد ورشيد، ١٩٨٨ ، ص٢٠**).

فضلاً عن المساكن التي تدل على اشتراك سكنة الموقع في تمهيد منطقة سكناهم فوق ربوة لتأمين أنفسهم من الغرق والسيول، فضلاً عن غارات الجيران. إلى ذلك أن مخازن الغلال الجماعية في قرية المعادي وغيرها من الأدلة تشير إلى وجود سلطة في القرية كانت مشرفة على حماية المحاصيل، ولم تستمر القرى الزراعية في حالة تفرق إذ اسهمت عوامل مصالح مشتركة فرضتها البيئات الزراعية على أهلها، والرغبة في تبادل المواد الأولية المتوافرة في منطقة دون أخرى، فضلاً عن تبادل المصنوعات النامية التي قد تتوافر في قرية ولا تتوافر في أخرى في توحدها (**صالح، ٢٠٠٤ ، ص٨٩**). فيما يرى بعض الباحثين أن الحضارة العمرية لا يوجد فيها دليل على زعامة على الرغم من الاعتراف بوجود صور تدل على حروب ممثلة في صور أسرى حيث الأيادي المربوطة إلى الخلف. وهذا الفريق من الباحثين يرى أن هناك غزواً آسيوياً لوادي النيل في نهاية هذا العصر، وهم الذين يمثلون عصر نقاده الثاني الجرزي ضمن الحجر المعدني. ومن المعلوم أن الحضارة الجزرية سميت نسبة إلى قرية من قرى مركز العياط (**الأحمد ورشيد، ١٩٨٨ ، ص٢٧**). أما الفريق الآخر فيرى ظهور مجموعة من الملوك والزعماء في الثقافة المسماة نقاده الثانية ونقاده الثالثة بحدود ٣٥٠٠–٣٢٢٠ ق.م ، إذ عاشت مصر مرحلة دويلات المدن المتعددة في شمال وجنوب مصر، وهذا العصر هو العصر الشبيه بالتاريخي والكتابي ، ويطلق على هذه الدولة السلالة (صفر) (**الماجدي، ٢٠١٦ ، ص٥١**).

يعد هذا العصر ذا متغيرات سياسية وحضارية، منها بروز الملوك المحاربين الذين سيقودون مصر للتوحيد، ويمكن عدّ هذه المرحلة بداية نشوء النماذج البدائية لعصر السلالات

القادم، وكان يشار لأسماء الملوك علامات تدل على الحيوانات مثل السمكة، الفيل، الثور، الأسد، وغيرها (**الماجدي، ٢٠١٦ ، ص٥٢**). لقد صارت حضارة جرزه تمثل مصر المتحدة باندماج الوجهين القبلي والبحري، وجمعت بين حضارة غرب الدلتا وشرقها. سيطر أصحاب حضارة نقاده الثانية على مصر وتقدموا غرباً وانتشروا شمالاً من أسيوط إلى مصر السفلى، ويعتقد أن الري الصناعي بدأ في هذا العصر، وهذا إن صح يدل على حكومة مركزية قوية وتقدم اجتماعي، ومن المؤكد أنه في نهاية العصر الجرزي بدأ غزو مصر السفلى ووضع أساس الوحدة ،ووضع حجر بالرمو فوق السلالة الأولى ملوك يضعون التاج الأحمر (**الأحمد ورشيد، ١٩٨٨ ، ص٣٤**). إن العصور التي سبقت السلالات تشير إلى مقاطعات لكل منها حكومة مدنية وإله محلي كانت صراعات مع بعضها، وكانت تشكل تحالفات أو مصاهرات وفقاً لمصالحها المشتركة أو لوجود خطر يهدد وجودها. ثم تلتها بدء حركة اتحاد، حيث تكونت في الدلتا مملكتان، الأولى كبيرة تقع غرب الدلتا عاصمتها بحدت (دمنهور الحالية) وإلهها حورس، والأخرى صغيرة تقع شرق الدلتا وعاصمتها بوصير (قرب سمنود) وإلهها عنزتي ثم أوزيريس، ثم حصل الاندماج بين المملكتين، وبذللك نشأت مملكة عاصمتها سايس (مركز كفر الزيات) وأصبح إلهها الإله نيت، وانتقلت العاصمة إلى بحدت، وأصبح الإله حورس، كما توحد الصعيد تحت لواء الإله ستخ، وكانت العاصمة قفط الواقعة شمال الأقصر. وتعد المملكة الشمالية مملكة الدلتا أقوى من المملكة الجنوبية –الصعيد– مما مكنها من غزو الجنوب والانتصار عليها، وبذلك توحدت مصر وأصبحت العاصمة الموحدة لمصر تسمى أيون (عين شمس)، وأصبح الإله أوزيريس عنزتي الإله القومي، وظهر في الدولة الجديدة التقويم الشمسي، ثم أصبح التاج المزدوج وهو الريشتين والتاج الأبيض تاج الصعيد تاج ملوك الدولة الجديدة (**الأحمد ورشيد، ١٩٨٨ ، ص٣٧**). لقد بدأت مصر القديمة بتكوين الدولة من خلال ثلاث دويلات مدن وهي ثينس ونخن ونقاده، إذ سقطت نقاده وضمت ثينس مدينة نخن لها لتبدأ مرحلة توحيد البلاد تدريجياً، وخلال هذه المرحلة صارت مدينة أمبوس (نوبت) في الجنوب أقوى المدن وهي عاصمة الإقليم الجنوبي والتي دخلت في صراع مع مدينة بخيرت عاصمة الإقليم الشمالي، وكان صراعاً طويلاً انتهى بانتصار الشمال وتوحيد البلاد (**الماجدي، الحضارات... ٢٠١٦ ، ص٥٤**).

وقد بدأت أقاليم الوجه البحري نضجها السياسي بعد تجمعها في مملكتين، شرق الدلتا في إقليم عنجه والعاصمة التسمية نفسها ، ولواؤها على هيئة الحربة ومعبودها عنجتي امتدت إلى عين شمس وغرب الدلتا التي رمز لإلهها حور بالصقر، ويحتمل امتدادها جنوباً حتى أوسيم الحالية، ثم اتحدت المملكتان وأصبحت عاصمتها ساو (صان الحجر الحالية) واتخذوا النحلة شعار الدولة واعتمروا التاج الأحمر. وكانت الخطوة الثالثة هي أقاليم الصعيد التي اتحدت تحت زعامة مدينة نوبت في منطقة قنا والإله ست وهو من أرباب السماء والأمطار والزلازل

والعواصف. وقد ازدهرت حضارة نقاده الأولى في ظل مملكة نوبت، وكان هناك تبادل تجاري مع الشمال، وفي المرحلة الرابعة انتقلت عاصمة الوجه البحري من ساو إلى عنجه التي سميت بعد ذلك جدو، وكان الإله القومي أوزيريس. وبانتصار المملكة الشمالية توحدت مصر، ولكن سرعان ما تمكنت المملكة الجنوبية من الانسلاخ من الشمالية والانتصار عليها، ثم عادت المملكة الشمالية إلى توحيد مصر للمرة الثانية، وفي هذه المرة كانت العاصمة أونو (عين الشمس والمطرية وما حولهما) والإله أوزير وأكوم، ثم أصبح رع إله الشمس **(صالح، ٢٠٠٤ ، ص٩١-٩٣)**. لاحقاً عادت مصر إلى مملكتين، مملكة الوجه البحري في مدينة به (قرية إبطو أو تل الفراعين قرب دسوق) ومملكة الوجه القبلي –الصعيد– في مدينة نخن (قرية الكوم الأحمر شمال إدفو) وكان رمز المملكة الشمالية (البحري) الأفعى التي تمثل المعبودة واجة وشعارها نبات البردي. أما مملكة الجنوب –الصعيد– فالإله حور ورمزه الصقر، أما شعارها زهرة اللوتس أو الزنبق، وكان تاجهم الأبيض الطويل، وكانت تجاور العاصمة الضاحية الدينية نخابه (بلدة الكاب) ورمز الإله نخابه أنثى العقاب. ومن هذه المملكة ظهر الملك مينا، وكان قبله الملك العقرب ونعرمر **(صالح، ٢٠٠٤ ، ص٩٦)**. نجح مينا في إعادة توحيد مصر للمرة الثالثة في العصر الذي سبق الأسر الحاكمة، وبذلك قامت الدولة بمؤسساتها ودوائرها ونظام حكمها. لقد آمن المصريون القدماء أن أول من بدأ الحكم هي سلسلة الآلهة التي يظهر منها الإله بتاح الذي دام حكمه ٦٠٠ سنة.

الدولة المصرية في عصورها التاريخية:

يتفق الباحثون أن الملك مينا هو الذي وحد البلاد وأسس أول سلالة حاكمة، ووفقاً للدراسات الحديثة فإن الملكين العقرب ونعرمر (مينا) هما اللذين وحدا مملكتي الشمال والجنوب في مملكة واحدة حكمت فيها ست سلالات حاكمة عرفت بالتاريخ باسم المملكة القديمة (٣١٠٠-٢٦٨٦ ق.م) امتاز بعصر نهاية دولة المدينة وبداية نظام الدولة الواحدة ونشوء المؤسسات الدينية والدنيوية، وكان الملك الفرعون بمثابة الإله الحقيقي على الأرض فضلاً عن بروز بناء نظام روحي ديني متماسك أصبح الأساس المتين للدين المصري القديم **(الماجدي، ٢٠١٦ ، ص٥٧-٥٩)**. عرف الفرعون المصري منذ السلالة الأولى بألقاب عديدة وأسماء عديدة منها الاسم الشخصي وهو الاسم النبتي المسبوق بلقب السيدتين (الإلهتين وادجت ونخبت لمصر الشمالية والجنوبية والاسم النوبتي المسبوق بلقب ملك الوجهين القبلي والبحري ثم الاسم الحورسي المدون داخل الخانة المستطيلة (السرخ)) **(الأحمد، ورشيد، ١٩٨٨ ، ص٤١)**.

ولكون الملك يمثل الإله الأعظم للبلاد حور، فقد اكتسب الاسم الملكي الحوري الذي كان يكتب كما اشرنا داخل الخانة، أي داخل قصر يعلوه صورة حور الذي رمز له الصقر. ويُفسَّر الاسم النبتي اتحاد القطرين، القطر البحري والقطر القبلي، فكان الملك يوضع تحت حماية

الإلهتين المقدستين في عاصمتي البلاد القديمتين وهما الإلهة النسر نخبت في الكاب والأفعى الإلهة واجيت في بوتو **(حسن، ١٩٤٠ ، ص١)**.

أما الاسم النسوبيتي فله صلة بشعار سو شعار مملكة الصعيد القديمة وبيت شعار مملكة الدلتا، وقد اعتمد الإسراف الإداري الفعلي منذ هذا العصر على بضع طوائف من كبار الموظفين تداخلت اختصاصاتهم بعضها مع بعض. عرف هذا العصر بيتين للمال، أحدهما سمي برحج، أي بيت الفضة أو البيت الأبيض أو بيت المال الأبيض التي اختصت بضرائب الصعيد أو المملكة الجنوبية سابقاً، والبيت الآخر سمي بر دشر، أي البيت الأحمر، واختص بضرائب الوجه البحري أو المملكة الشمالية السابقة فضلاً عن إشراف رجال البلاط الملكي على إحصاء عام يقام كل عامين، وكان حكام الأقاليم يقومون بتنفيذ السياسة العامة للحكومة في هذا العصر وحملوا لقب "عج مر" ربما يعني القائم على حفر الترع **(صالح، ٢٠٠٤ ، ص١١٩)**.

والتغيير الذي حصل في عصر المملكة القديمة أنه في عهد الأسرة الخامسة بدأ التأكيد على بنوة الملك لإله الشمس، فلقب بأنه ابن الشمس وذلك عند ولادته، وفي أواخر الأسرة بدأ النبلاء يشعرون بقوتهم من خلال ذكر سيرهم الذاتية على قبورهم **(زايد، ١٩٦٦ ، ص٢٦٧-٢٦٨)**، منها سيرة أوني الذي بدأ موظفاً بسيطاً ليتدرج إلى قاضي ثم قائداً في الجيش فحاكماً للوجه القبلي وختمها رفيقاً للملك. لقد ازداد نفوذ كهنة رع في عصر هذه الأسرة.

من الأمور السياسية التي استجدت في عصر المملكة القديمة ظاهرة صعود النساء إلى العرش، وهذا حصل في عهد الملك نتر إين من السلالة الثانية **(الأحمد، ورشيد، ١٩٨٨ ، ص٤٩)** . فضلاً عن أنه في عهد الملك قبح آخر ملوك الأسرة الأولى عيّن موظفين لإدارة شؤون الري وجباية الضرائب وحفظ السجلات، وهذا يقودنا للحديث عن الحكومة في عصر الدولة القديمة، فنلاحظ أن للتقدم والثراء الذي صاحب السلالات الأربع الأولى ترسخت العقيدة بألوهية الفرعون، فكان هو كاهن جميع الآلهة، وقد مثلت الأهرام رفعة الملك، وكانت مدافن النبلاء حول قبر الملك وهي تمثل مركزية الحكومة وحرص النبلاء على خدمة الملك حتى بعد مماته. وكان أمراء البيت المالك يعملون في الدولة وأحياناً توكل لهم وظائف دينية ويشغلون أبنائهم المناصب المهمة، ولهم إدارة خاصة بوثائقهم أو سجلاتهم، وكان الموظفون يختارون من بين المثقفين ويعينون بمرسوم، ففي البداية كاتب، ثم يتدرج وظيفياً ليصل وظيفة نائب الملك في القرية فالمدينة وأحياناً مناصب عليا. وكان رئيس كهنة الملك الأعظم أعلى مراتب الجميع مقاماً ويحمل لقب أمير، ولقب الذي في القلب أي قلب الملك فضلاً عن استيراث منصب الوزير في عهد السلالة الرابعة والذي كان يشغله أحد أولاد الملك، وبالوقت نفسه هو كاهن لإله القانون طحوط أو تحوت، ويرأس الوزير الإدارة العليا المشرفة على جميع الأعمال العامة يساعده رئيس المبعوثين المختص بنقل أوامره وموافاته بالتقارير الخاصة بالمقاطعات وبيده السجلات الملكية،

وهو رئيس القضاة ورئيس محكمة الستة العليا. ومع نهاية الأسرة الخامسة أُسندت إليه وظيفة الخزانة والزراعة وجميع المنشآت الملكية فضلاً عن بروز وظيفة حاملي أختام الملك الوجه البحري والوجه القبلي، وهم رؤساء البعثات إلى المناجم (**الأحمد، ورشيد، ١٩٨٨ ، ص٨٧-٨٩**). إن نظام الحكم في مصر القديمة يستند إلى أساس إلهي صرف، إذ كان الملوك قبل الأسر هم الآلهة، ثم تجسدت في شكل البشر، وآخرهم مينا، هو حور بشكل إله حي منظور، وكان من الصعب التفريق بين الملك والإله. إن النظرة في الحكم المصري تختلف عن النظرة نفسها في العقيدة السومرية، فالأخيرة تشير إلى نزول الملوكية من السماء وسلمت إلى البشر الذين تحملوا المسؤولية وليس الآلهة الذين تجسدوا بالصورة الآدمية في العقيدة المصرية القديمة، والملك في بلاد الرافدين نائب الإله وليس إلهاً كما في مصر. كان العرش المصري لا يعتليه إلا من كان يسري فيه الدم الملكي، وكانت الملوكية تنتقل عن طريق الأم (**الماجدي، ٢٠١٦ ، ص٧٥-٧٨**). كانت واجبات الملك حماية الدولة والبلاد، وإقامة الشعائر الدينية، وحماية المدن من الفيضانات، وتستمر هذه الواجبات حتى بعد وفاته، إذ عليه حماية شعبه في العالم الثاني، ولذلك بنيت الأهرام. ومع النصف الثاني من عصر الدولة القديمة لجأ الكهنة إلى مزج العقيدة الأوزيرية مع المعتقد الشمسي بما يحقق لهم ولملوكهم أغراضهم السياسية (**الماجدي، ٢٠١٦ ، ص ٨١**). وكان ولي العهد الشخص الثاني في البلاط بعد الملك وهو الابن الملكي الأكبر الذي هو نتاج الدم الملكي الخاص وثمرة الزواج الملكي بين الأخ الملكي من الأخت الملكية. وكان يعاون الملك مستشاران، أحدهما للصعيد والآخر للدلتا. أما وظيفة حامل الختم فتدل على الخاتم والخازن الأمين، وفي أواخر عصر الأسرة الثانية ظهر لقب حامل أختام الإله (**الماجدي، ٢٠١٦، ص٨٥**). ومن أبرز الشخصيات بعد الأسرة المالكة الوزير الذي يرى بعض الباحثين أنه قد ظهر في عصر الأسرة الرابعة، وكما أشرنا، أن الوزير كاهن الإله تحوت مع الإلهة معات إلهة العدل والإلهة سثات إلهة الإدارة (**حسن، ١٩٤٠ ، ص١٤**).

وكان الوزير يشرف على السجلات الملكية التي تحفظ الأوراق الهامة كالمراسيم الملكية والعقود والوصايا وهو رئيس القضاة. كان الملك هو من يعين حكام الأقاليم، وكان اختياره من عظماء الرجال، وأحياناً أخرى من خارج الأقاليم. وللحاكم ألقاب كثيرة مثل: النبيل، الأمير، المشرف العظيم على الجند، المشرف العظيم على الكهنة، وكان يلقب ايماخو باللغة المصرية القديمة وتعني المبجل أو الموقر لدى الملك (**زايد، ١٩٦٦ ، ص٤٣٩**). كان التعليم ضرورياً للانخراط في سلك الهيئة الحاكمة، ويقصد بهم المتعلمون الذين عرفوا الكتابة، وعليه انفتحت لهم الأبواب الإدارية، ومن خلالها نالوا نصيباً من النفوذ (**أديب، ١٩٩٠ ، ص٩**).

وفي عهد المملكة الوسطى الذي شمل عصر الأسرة الحادية عشر انتهج الملك مونتوحوتب سياسة تركز السلطة في العاصمة طيبة والحد من سلطات حكام الأقاليم.

أما في عصر الأسرة الثانية عشر، فقد جمعت السلطة بين خصائص المملكة القديمة ومكاسب عصر اللامركزية الأولى ونمو روح الفردية فيه في آن واحد، فضلاً عن إشراك ولي عهد إدارة الدولة وتصريف أمورها **(صالح، ٢٠٠٤ ، ص٢٤٩)**.

وتعد هذه السُنَّة الجديدة الأسلوب الجديد الذي سار عليه ملوك الأسرة الثانية عشر، وبعد غزو مصر في عهد الهكسوس ونجاح المصريين لاحقاً في إلحاق الهزيمة بالهكسوس نشأ عصر جديد في تاريخ مصر هو عصر الدولة الحديثة أو العصر الإمبراطوري، من أبرز ميزاته أن الدولة اهتمت بالجانب العسكري، بل أن الحكومة هي عسكرية كون اختيار الملك أحمس الأول لنوع الحكومة كان نتيجة مباشرة لخبرته السياسية والعسكرية مع الحكم الأجنبي، ومن بعده كانت غزوات الفراعنة انعكاساً عاماً لذلك الاختيار، وقد شهدت هذه الأسرة التي أسسها أحمس الأول انقلاباً ضد المفاهيم السياسية لتولي الحكم تمثل بانقلاب الملكة حتشبسوت وانفرادها بالحكم، فضلاً عن ازدياد عدد ونفوذ كهنة آمون وتدخّلهم بالسياسة للدولة **(الأحمد، ورشيد، ١٩٨٨ ، ص١٦٠-١٦١)**. كانت الإمبراطورية المصرية في آسيا نتيجة مباشرة لطرد الهكسوس من وادي النيل، ومع بداية حكم أخناتون تدهورت الإمبراطورية نتيجة ثورته الدينية. أما عن الأسرة التاسعة عشرة فهو يمثل عصر جديد في تاريخ مصر الفرعونية من ناحية السياسة الوطنية وهو عصر رخاء وإصلاح داخلي، فضلاً عن تولي الجيش المصري مقاليد الحكم، ومن أبرز متغيراتها إعادة منصب الوزير بعدما كان قد ألغي في عهد الملكين توت عنخ آمون وآي، وكذلك تم تعيين وزيراً للوجه القبلي وآخر للوجه البحري. وفي عهد الأسرة العشرين تمكن حريحور بوصفه الكاهن الأكبر والوزير الذي بيده كل السلطة الإدارية من جميع السلطات الدينية والسياسية والعسكرية والاستقلال في جنوب البلاد. لقد كانت الصراعات في عهد الدولة الحديثة تشخص في أربع طوائف وهي الموظفين المدنيين، الكهنة، الجيش، الجنود المرتزقة. وقد استغل حريحور ذلك بالاستناد على الجيش، ولذلك تم له ما أراد لتدخل في مصر في عهد الفوضى وانهيار الإمبراطورية لاحقاً. لقد كانت الدولة المصرية فردية بيروقراطية مركزية من حيث المبدأ، ولكنها عملياً مركزية، ولذلك حدثت فيها اضطرابات منها إضراب العمال في عهد رعمسيس الثالث، وفيه نهبت المقابر الملكية وشارك فيها الكهنة، فضلاً عن المؤامرات التي أنهت حياة الملك رعمسيس الثالث **(صالح، ٢٠٠٤ ، ص١٩٩-٢٠٠)**.

الخلاصة والاستنتاج:

تتفق الحضارتان في بلاد الرافدين ومصر القديمة على أساس أن الدولة والحكم ديني مستنداً إلى أسس دينية، إذ تشترك كلتا الحضارتين بالحقيقة التي مفادها أن الآلهة هي التي بدأت الحكم، وبذلك تأسست الدولة الكونية بوصفها مرحلة أولى في غابر الزمان. وبعد خلق الإنسان وتواجده على الأرض صارت المرحلة الثانية وهي المرحلة الأرضية أو الدولة الأرضية

ممثلة بالإنسان محوراً أساسياً لها. وفي هذه المرحلة التي نعدّها بداية ظهور مفهوم الدولة نلاحظ أنها مرت بسلسلة من المتغيرات التاريخية، ففي البداية، أي العصور الحجرية يمكن أن تقول إن أقدم أنموذج للدولة هي الأسرة ممثلة بالأب (الملك) والزوجة والأبناء (الشعب). وبعد الاستقرار في المستوطنات المفتوحة على ضفاف الأنهار نشأت في كلتا الحضارتين بوادر التنظيم الاجتماعي والسياسي والذي نعني به حكم شيوخ القبائل، وكان هذا في العصر الحجري الحديث. لكن التنظيم السكاني الذي يعد تأسيساً الدولة جرى في العصر المعدني، فنشأت دويلات مدن في بلاد الرافدين وأخرى أقاليم في مصر القديمة، وتطورت في العراق القديم حيث المجالس مثل مجلس الأحرار ومجلس المسنين أو الشيوخ واختيار الأين وهو الكاهن فالإنسي وأخيراً اللوكال وهو الملك، وتعددت وظائفهم، بينما أخذ شكل الدولة في مصر القديمة أيام العصر المعدني شكل ممالك، إذ لم يوجد مجلس ولا لوكال. أصبح الإنسان في بلاد الرافدين ينظر للملك كأنه نائب عن الإله ومفوض منه، ولا تتم شرعية حكمه إلا بموافقة من كبار الآلهة وهما أنو إله السماء الذي يملك حق التفويض والأمر، وإنليل إله الهواء والعواصف الذي يملك حق تنفيذ الأوامر الصادرة من الآلهة لاسيما أنو، وإن الإخلال بالعدل سيكون وبالاً على الملك والأسرة المالكة فضلاً عن الدولة. وتطورت الدول من حكم دويلات مدن متناثرة متناحرة في العصر السومري إلى دولة المركز الواحد والعاصمة الواحدة والملك الواحد، أي الدولة المركزية. وهنا نشأت الملكية الموحدة التي قادت إلى الإمبراطورية بدءاً من الأكديين وانتهاءً بالبابليين الكلديين. أصبح التأليه والتقديس سمة الأكديين، وعنهم أخذها الملوك السومريون في عصر سلالة أور الثالثة، وأصبحت الحروب الأداة الحقيقية للسيطرة على منابع الموارد الأولية وخطوط التجارة، وأصبح القسم باسم الملك والإله، وبقي التفويض الإلهي سارياً في كل عصور بلاد الرافدين التاريخية.

أما في مصر، فإن الملك هو الإله إيماناً من القوم أن الإله يمكن تصوره بالهيئة البشرية، ولذلك بدأت خطوات بقاء الدولة المصرية منذ العصر المعدني وتحديداً في العصر الجرزي حيث نشأت السلالات الحاكمة التي دخلت في صراع مع بعضها مما مهد السبيل لقيام مملكتين إحداهما في الشمال وهي المملكة الشمالية أو مملكة الدلتا (الوجه البحري)، والأخرى في الجنوب وهي المملكة الجنوبية مملكة الصعيد ثم (الوجه القبلي). ثم بدأت مرحلة التوحيد، إذ مرت مصر القديمة بثلاث محاولات لتوحيد قسميها لينجح أخيراً الملك مينا من الجنوب بتوحيد مصر وتأسيس مملكة قديمة لعاصمة واحدة وحكومة مركزية لها إله رسمي هو بتاح ولاحقاً رع إله الشمس.

مرت المملكة القديمة كذلك بمتغيرات سياسية، إذ نشأت فيها مناصب سياسية لم تكن موجودة، منها منصب الوزير، فضلاً عن تولي النساء مقاليد الحكم، وظل الفرعون إلهاً وليس مفوضاً في إدارة الدولة، وما بناء الأهرامات إلا تجسيد للواقع المذكور، كذلك ظهور طبقة

الموظفين والمستشارين وبعثات التعدين واستمرار الصراع مع القبائل البدوية على الحدود الشرقية والغربية لمصر. وفي عهد الدولة الوسطى جرى إشراك الأبناء في الحكم وأصبحت سمة مميزة، أما في عصر الدولة الحديثة أو العصر الإمبراطوري فسادت فيه متغيرات سياسية واجتماعية منها بروز الطبقة العسكرية في حكم البلاد، وانقلاب حتشبسوت، والثورة الدينية في عهد أخناتون، وإلغاء منصب الوزير في عصر توت عنخ آمون وعودة المنصب في عهد حورمحب مؤسس الأسرة التاسعة عشر، وازدياد عدد المرتزقة في القوات العسكرية المصرية والذين كان لهم الدور في الأسرة الحادية والعشرين حتى سقوط مصر بيد الأخمينيين بالاستيلاء على الحكم وقيادة الدولة فضلاً عن تبوء المناصب العليا في قيادة الجيش والقضاء لاسيما الليبيين. لقد تمركزت السلطة في بلاد الرافدين بيد الملك، ولا يوجد هنا منصب الوزير، وكانت سلطة الملك واسعة، إذ جمع السلطات التنفيذية والسياسية والعسكرية والتشريعية، فيما نلاحظ أنه في مصر القديمة كان الفرعون رأس الهرم السياسي والعسكري، ولكن كان للوزير– وهو الشخص الثاني– سلطات عديدة منها الإدارية والعسكرية والمالية والزراعية. إجمالاً نحن نتفق على أن حضارات بلاد الرافدين ومصر القديمة كانتا السباقتين في تأسيس مفهوم الدولة ونظام الحكم واتضاحه منذ العصر الحجري الحديث. ويعد العصر المعدني البداية والانطلاقة الحقيقية لبداية نشوء الدولة بمفهومها المتعارف عليه من مؤسسات عسكرية وإدارية ودينية. بقي القول إن نشأة الحكم في العراق كانت منطلقة من المعبد على يد كهنته، ثم انفصلت السلطة الدينية عن الدنيوية، وإن كان للكهنة دور بارز في إسناد السلطة لمن يرونه مناسباً منطلقين من تأثيرهم في المجتمع.

قائمة المصادر:

(١) الأحمد، سامي سعيد، ورشيد، جمال، (١٩٨٨)، تاريخ الشرق القديم، بغداد، العراق.

(٢) أديب، سمير، (١٩٩٠)، مرحلة التعليم العالي في مصر القديمة، دور الحياة، دار العربي، القاهرة، مصر.

(٣) باقر، طه، (٢٠١٠)، مقدمة في أدب العراق القديم، شركة بيت الورق للنشر، ط١، بغداد، العراق.

(٤) حسن، سليم، (١٩٤٠)، مصر القديمة، ج٢، مطبعة كوثر، القاهرة، مصر.

(٥) حنون، نائل، (٢٠٠٧)، حقيقة السومريين ودراسات أخرى في علم الآثار والنصوص المسمارية، دار الزمان، دمشق، سوريا.

(٦) رو، جورج (١٩٨٤)، العراق القديم، ترجمة: حسين علوان حسين، بغداد، العراق.

(٧) زايد، عبد الحميد، (١٩٦٦)، مصر الخالدة–مقدمة في تاريخ مصر الفرعونية منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق.م، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر.

(٨) ساكز، هاري، (١٩٧٩)، عظمة بابل، ترجمة: عامر سليمان، الموصل، العراق.

(٩) صالح، عبد العزيز، (٢٠٠٤)، الشرق الأدنى القديم مصر والعراق، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر.

(١٠)الصالحي، صلاح رشيد، (٢٠١٧)، بلاد الرافدين، دراسة في تاريخ وحضارة العراق القديم، ج١، ج٣، ط١، بغداد، العراق.

(١١)الطعان، عبد الرضا، (١٩٨١)، الفكر السياسي في العراق القديم، دار الرشيد للنشر، بغداد، العراق.
(١٢)الماجدي، خزعل، (٢٠١٦)، الحضارة المصرية، ط١. دار النون، رأس الخيمة، الإمارات العربية المتحدة.
(١٣)الماجدي، خزعل، (٢٠٢٩)، الحضارات السامية المبكرة، ط١، بيروت، لبنان.
(١٤)الماجدي، خزعل، (٢٠١٩)، بخور الآلهة، دراسة في الطب والسحر والأسطورة والدين، دار إبكالو، ألمانيا.
(١٥)عبد الهادي، سعدون، (٢٠١٠)، التوظيف السياسي للفكر الديني في العراق القديم (٣٠٠٠-٥٣٩ ق.م)، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الآداب-جامعة بغداد، العراق.

The concept of state and governance in ancient history, Mesopotamia and ancient Egypt as a model

Ass. Prof. Emad Tariq Tawfiq
History Department / College of Education for Girls
Baghdad University
E-mail: hu_alani@yahoo.co.uk
Mobile: 07809819512

Summary:

The aforementioned topic examines the study of state building in Mesopotamia and Pharaonic Egypt, from the stage of the city (the city) to the empire and through the development of the system of government, especially in Pharaonic Egypt.

The general basis of government is the religious character of both civilizations, as well as the emergence of the city-state as a first stage in the ladder of building the complete state and then the empire as a final stage for the expansion of the state. Without a doubt, political titles have indicated the importance of that expansion as well as management as a complement to building the state.

We can say that the cosmic state, led by the gods, was the model by which the residents of Mesopotamia and even the Pharaohs believed in building the earthly state, and it is self-evident that each civilization has its advantages and imprints in shaping the general framework of the state and citizenship. The research is divided into two parts, in the first we talked about the form of the state in Mesopotamia as a religious cosmic genesis from the gods and then delegated to human beings and the transition to ownership, while the other section included the study of the state in Pharaonic Egypt and its development and through it we get to know the concept of citizenship which is without doubt contrary to the concept Contemporary.

The Egyptian political concept has evolved, especially after the involvement of women in government and state administration since the era of the second family and the involvement of children, especially the crown prince in the administration since the twelfth family age, as well as the priests 'assumption of affairs since the fifth family era, and their influence on the internal politics of the state, as well as the army that took over In the era of the eighteenth and nineteenth dynasties, in addition to the influence of the minister or Aziz of Egypt and his government as they represent the state and its pillars. At the conclusion of the research, the research reached a firm historical fact that the basis of the state is religious and its principle as well, the difference in particles and development according to the political conditions of both civilizations, as well as the political form of Mesopotamia remains unchanged unlike the Pharaonic Egypt.

Keywords: country - governance - ancient history - Mesopotamia and ancient Egypt